

الفِكُرُ الْعِلْمِيُّ الْعَرَبِيُّ

الرواية
في شخص العباس بن فرناس

حَكَمَ الْأَنْدَلُسَ

الرَّسْتَادُ سَعِيدُ الرَّبِيعِيُّ
عَصْرُ الْجَمِيعِ الْعَالَمِيِّ الْعَرَبِيِّ

ومناظرات ومجادلات علمية ، وما يلقبه علماء الاندلس من طريف ما أخدواه من المارة .

ويقصد المجالس الأدبية ، ويستمع إلى شيوخها استماع متبع ، يريد أن يستفيد مما يجري في العلاقات وال المجالس ، مما كان يلقى شعراً الاندلس وأدباً لها من جميل النظم والنشر ، ومن غريب الأخبار واللغة التي أخدوها من أهل الشرق .

وكان يتزدّد إلى أصحاب الفنون الرفيعة ، يستمع إلى الأصوات التي وضعوها ، والآلات الموسيقية التي يوتّعون عليها .

درس كتب الطب ، وخصائص الامراض وأعراضها ، وطرق الوقاية منها ، وملاج من أصبه بها .

درس خصائص الأعشاب والأشجار والنباتات ، ووقف على ما تفيده في المراجحة ، وكان يقصد الإطماء والصيادة ويتناقض فيما ظهر له من اطلاعه وتجاربه في هذا العلم الجليل ، الذي يحفظ صحة المجتمع ، ويقيه شر الأمراض .

ابو القاسم عباس بن فرناس بن ورداس التاكريسي الاموي بالولاه - أحد أساطين العلم والأدب والفن في الاندلس .

لم تقف على ولادة هذا العالم الجليل ، والذين ترجموا له ذكرها : أنه توفي سنة 274 هـ (884 م) وأنه أربى على الشمائل ، ف تكون ولادته في آخر القرن الثاني للهجرة (حوالي سنة 194 هـ)

اصله من برارة « تاكريتا » ونشأ في قرطبة ، ماسمة الدولة الاموية ، وهي - إد ذات - مركز العلم والأدب والفن في أوروبا ، يشدون إليها الرحال ، ويقتبسون من معارف العرب وفنونهم وصناعاتهم ، التي كانت تبهر عقولهم ، وتأخذ بالبابهم .

في هذا المعنى الراهي بالعلوم والمعارف ، شب ابن فرناس ، وكان ذكي الذؤاد ، سريع الحفظ ، دقيق النظر .

تعلم القرآن الكريم ، ومبادئ الدين الحنيف في الكتايب التي كانت كثيرة في قرطبة ، ثم أخذ يرتاد العلاقات العلمية ، التي كانت تعقد في جامع قرطبة ، ويستمع إلى ما يجري فيها من محاضرات

وأبو القاسم لم يكن من هذا الرهيل القائمه بالسهل البسط ، بل كان يدقق ما يدرسه ، ويتحقق ما يفهمه ، ويتغير ما يقرره ، ويطبق عملياً ما يحتاج إلى العمل ، ليتأكد صحة المدح ، ويستفيد مما أخذ ، فهو أحد العلماء العاملين ، الذين وصفوا أنس الحسارة العلمية والمطيبة في الاندلس : سهلوا الطريق ، وشرحوا الفاعل ، ويسروا المسر ، وابتكرروا آلات علمية و المعارف مطيبة .

فأبو القاسم من العلماء الذين علموا وعملوا : عكف على تحقيق القضايا التي درسها ، وهيا لنفسه ما يحتاجه منه من آلات دقيقة ، وأدوات مختلفة والأجهزة العلمية - التي ساعدته على اظهار علومه ومعارفه عملياً ، ورسم طريقة مثل لاهل بلاده . وهي محاولة تطبيق العلم على العمل ، بحيث يتحققون ما يدرسوه ، ويصنعون لأنفسهم الآلات والأدوات العلمية التي يحتاجونها من غير أن يتكلوا عن غيرهم ، وبذا يحق لهم أن يكونوا علماء عاملين ، يسمى بهم ، ويرؤخذونهم ، ويغتر بآرائهم المزيدة بالعمل بعد العلم .

وعلى هذا فابو القاسم فاق أهل عصره في طرائقه العملية ، نبرز في ملوك وعلماء وعراوف اوجدها من تجاريته في التوليد والاختراع ثم الابتكار ، ومن ذلك :

1 - على صناعة الكيمياء ، وقام بتجارب وفحوص مختلفة ، واحتدى إلى حقيقة ، لم تكن معروفة عند الاندلسيين ، منها : أنه استنبط صناعة الزجاج من نوع من العجارة ، وبذا يسر للاندلسيين صناعته من مادة بخسة الثمن ، سهلة التناول ، فانتشرت صناعته في الاندلس ، وتغدو فيها .

2 - على علم الفلك والتنجيم ، رائد النجوم والكواكب في انلاكمها ومداراتها ، وصنع الآلات التي تساعده على الرصد . وما صنفه الآلة المعروفة « بذلك الحق » ورلتها إلى الامير محمد بن عبد

واشتهر بين اطباء مصره ، فاتخذه الامراء الامويون (1) طيباً خاصاً لمعالجة الاسرة الحاكمة ، يشرف على صحتهم وطعامهم ، ويرشدهم إلى انجع الطرق في معالجة مرضاهم .

درس الفلسفة والمنطق والنجوم والعلوم الروحانية ، وجمع الكتب التي تبحث عنها ، والتي محب الحصول عليها ، وترأها قراءة مدققة ، واستفاد منها وأفاد قومه .

اشتغل بال نحو و دقائق الامر اب ، واطبع على آراء النحاة في التعليق وصار من نحاة عصره في الاندلس ، يلخص منه وذكره الزيبيدي في الطبقة الثالثة من نحاة الاندلس ، وقال منه : كان منتصراً في فروض من الاعراب .

كان يقصد اهل الصناعات الرفيعة ، ويدتق باعمالهم وصناعاتهم ، وفنونهم الدقيقة ، ويسالمون من سر ما لم يهدى إلى معرفته بنفسه ، فاقتبس منهم صناعات وعراوف سعادته على ابراز ما علمه ، مما يحتاج إلى عمل آلات علمية .

وهكذا صار أبو القاسم العباس بن فراس متضللاً بعدها علوم وفنون وصناعات ، وآداب مختلفة ، نبرز على علماء زمانه ، بما افرد به من معارف وعلوم لم تهبا لغيره من أهل الاندلس ، حتى انهم اطلقوا عليه « حكيم الاندلس »

- 2 -

كثير هم الذين تخلعوا من العلم بالأمور البسطة ، التي يسمى لهمها . وبالنظريات المجردة يتكللونها من غيرهم ، ولم يكفلوا أنفسهم عناء البحث والتدقيق فيما درسوه ، أو تحقيق ما علموه ، ولم يحاولوا تطبيق العلم على العمل ، ليتأكدوا من صحة ما نقل إليهم ، أو أخدوه من غيرهم .

(1) اتصل ابن فراس بثلاثة امراء - وكان مقرباً اليهم وهم على التوالى :

1 - الحكم بن هشام 188 - 206 هـ - 803 - 821 م

2 - مبد الرحمن بن الحكم 206 - 238 هـ - 852 - 821 م

3 - محمد بن مبد الرحمن 238 - 273 هـ - 886 - 852 م

عليها اذا ما طارت في الفضاء ، وكان له خير مساعد على هذا تفوقه في العلوم الطبيعية والرياضية والكيمياء ، فاطلع على خواص الأجسام ، واجتمع لديه من المعلومات ، ما حمله على أن يجرب الطيران بنفسه .

كسا نفسه بريش التخله من سرقى العرير (1) ، لثاثته وقوته ، وهو يتناسب مع ثقل جسمه ، وصنع له جناحين - من العرير ايضا - يحملان جسمه اذا ما حرکهما في الفضاء ، وبعد ان تم له كل ما يحتاج اليه هذا العمل الخطير ، وتأكد ان باستطاعته اذا ما حرک الجناحين ، فانهما سيحملانه ويطير في الفضاء ، - كما تطير الطيور - ويسهل عليه التنقل بهما اينما شاء .

اعلن للناس انه يريد ان يطير في الجو ، وان طيرانه سيكون من الرصافة - ظاهر مدينة قرطبة - فاجتمع الناس فيها ليشاهدو البطل يتهدى في سماء قرطبة .

صعد ابو القاسم فوق مرتلع ، وحرک جناحيه ، وقفز في الجو ، وطار في الفضاء مسافة بعيدة عن محل التي وقف فوقه ، والناس ينظرون اليه بدعشة واعجاب ، يبلون له ، وشاعرهم يقول :

يعلم (2) على المتقاء في طيرانها
اذا ما كسا جنانه ريح نشم

ولما هم بالنزول الى الارض ، تاذى في ظهره ، وفاته ان الطالر انتا يقع على زمكه (ذيله) ، ولم يكن يعلم موقع الذنب في الجسم الناه هبوطه الى الارض ، فاصيب بما اصيب من اذى .

هذه اول عملية جريئة يقوم بها حكيم الاندلس ، يجرب الطيران بنفسه ، وينجح بعمله الى حد ما ، وهذا النجاح الذي سجله حكيم الاندلس ، دفع الناس

الرحمن الاموي : وكتب عليها ابياتا من نظمه تناسب الآلة ، وما تقوم به من عمل :

قد تم ما حملتني من آلة
اعيا الفلسفة العجائب دوني

لو كان بطليموس الهم صنعة
لم يشتغل بجدال القانون

فإذا رأه الشمس في آفاقها
بعثت اليه بنورها المحررون

ومنازل القمر التي حجبت مما
دون المبون بكل طالع حبس

يبدون فيها بالنهار - كما بدت
في الليل في ظلماتهن الجسون

3 - عمل الميكانيك لمعرفة الاوقات - وهي تقوم مقام الساعة في يومنا هذا ، ورغمها الى الامير محمد بن عبد الرحمن ، وكتب عليها من نظمه :

الا انسي للدين . خير اداة
اذا غاب عنكم وقت كل صلاة

ولم تر شمس بالنهار ، ولم تشر
كوناكب ليل ، حالك الفلامات

بین امام المسلمين « محمد »
تجلت عن الاوقات كل صلاة

4 - التخل في داره هيئه السماء ، وصور فيها

الشمس والقمر ، والكوناكب ومدارانها ، والفيوم والرعد والبرق ، فكان من اماجيب الصنعة والابتكار .

5 - انه اول من طار وحقق في الهواء - كما تطير الطيور وهذا من الاختراعات المدهشة التي قام بها

« حكيم الاندلس » .

قام بعدة تجارب تمهيدية ، درس بها ثقل

(1) شق العرير الابيض والواحدة سرقى
(2) طم : ملا ، غلب ، والتشم : المتن من النسور .

بالاقدام على محاولة الطيران ، فكان عمله نواة طيبة
نمط واذ هررت ثم المرة .

على ان تصويره في كيفية النزول الى الارض
سالما ، لا ينقص من دقة عمله ، وخطوته العريضة ،
بالاقدام على الطيران بصورة فعلية . فان كل ميل في
بدايته ، تعقبه دراسات مديدة ، تكمل نواصمه ،
وتهدب طرقه ، وتحسن عمله ، وهكذا يكون في تقدم
مطرد مع الزمن ، وحاجة الانسان ، وما زالت
الدراسات المتتالية تجري على الطيران ، حتى شاهدنا
سفنًا عظيمة تطير في الفضاء ، حاملة عددا لا يستهان
به من المسافرين ، مع امتعتهم والاقالم ، تقطع
المسافات البعيدة ، بساعات معدودات ، كان هذا
بفضل التجارب التي قاموا بها ، وفي مقدمتهم حكيم
الأندلس — والفضل للتقدم —

ثم اعقبه بعد قرن من الزمان ، رجل عالم
فاضل من الشرق ، هو : اسماعيل بن حماد
الجوهري المتوفى سنة 393 هـ (1003 م) . ولكن
عمله لم يكن من دراسة ، وإنما من خاطر خطر بياله ،
نكان خاتمة حياته (1) .

هذا ما قام به المسلمون في المغرب والشرق من
محاولة الطيران ، فنجع حكيم الأندلس ، ولاقي
حتله عالم الشرق ، ولكنها فتحا بابا واسعا من اى
بعدهما في الاقدام على هذا العمل النافع .

كان العباس بن فرناس اديبا شاعرا ، وله شعر
كثير في أغراض مختلفة ، اتصل بالباطل الاموي ،
نكان شاعرهم — كما كان طبيبهم — وعاش في اكتاف
أمرائهم ونظم لهم الشعر في مختلف الأغراض :
 مدح أمراء البيت المالك ، ووصف حروبهم
 ومعاركهم مع الاعداء — وقد يشارك بنفسه فيما —

ووصف مجالس الانس والطرب ، وما في نصوصهم من
جنات وعيون ، وزروع ومقام كريم ، وملامب
وكواب ، ومصالدهم ومطاردهم — وكان يراقصهم بها ،
رافق الامير محمد بن عبد الرحمن ، لما سار الى
اخماد ثورة اهل « طipple » مع حلفائهم النصارى
سنة 240 هـ (854 م) ف الواقع فيهم الامير ، وأحمد
الثورة بعنف وشدة وشتت التائريين . فقال ابن
فرناس يصف هذه الواقعة :

ومؤتلف الاصوات مختلف الرحف
لهم الفلا ، قبل القبائل مختلف

اذا امضت فيه الصوارم خلتها
بروقا تزوى في السماء وتستخفى

كان ذرى الاملام في ميلانها
قراقير في يم ، مجرن من القذف

بكى جيلا وادي سليط فاعولا
على التفر العبدان ، والمعبة الفلف

يقول ابن بوليس لوسى — وقد ادى —
ارى الموت قدامي وتحني ومن خلفي

قتلت لهم الفا والفا ومئتها
والفا والفا بعد الف الى الف

سوى من طواه النهر في مستحاته
نافرق ليه ، او تهدى في جرف

لقد نعمت فيه فراة سورنسا
وسمعت الدقات فسفا على قصف

ووصف ما آلت اليه طipple من الدمار
والتخريب ، وهم الامير قنطرتها الشهيرة فقال :

(1) كان اماما في اللغة والادب ، وخطه يضرب به المثل في الجودة ، لا يكاد يفرق بينه وبين خط « ابن مقلة » سافر في طلب العلم ، واخذ من مدة شيوخ وخالف الامراء في بلاد ربيعة ومفسر ، وصنف كتابه المشهور « الصحاح » في اللغة واستقر في نيسابور على التدريس والتاليف ، وتعليم الخط ، وكتابة المصاحف ، وله مدة كتب .

ذكر في الطيران ، واعتقد أن في مقدور الانسان ان يطير اذا ما اتخد له جناحين ، كجناحي الطير ، ولكنه لم يتم بدراسات تمهيدية يجرب بها ما افترضه — كما فعل حكيم الأندلس — فانه صعد سطح الجامع القديم في نيسابور وقال : ايها الناس اني عملت في الدنيا ما لم اسبق اليه ، فسامح لآخرة امرا لم اسبق اليه ، وضم الى جنبيه مصراحي بباب ، وتابطهما بجعل ، وطscar في الفضاء ، — ولم يكن موقفنا بعمله ، فان مصراحي الباب لم يحملاته في الفضاء ، بل سقطا به على الارض ومات . نكان عمله هذا دراسة سطحية اجمل كبير .

انسحت طبلطة مطلة
 من اهنا ، في قبضة المقر
 تركت بلا اهل تؤلهمها
 مهجورة الاكشاف ، كالقبر
 ما كان يبقى الله نظره
 نصب لحمل كتاب الكفر
 وله تعيدة يعني بها الامير محمد بعودته من
 طبلطة ، موافقاً عيد الأضحى المبارك أولها :

ان القبول الذي اودى بعدين الخ ..

ولما جدد الامير محمد قصور الرصافة ، التي كان
 قد شيدتها جده « صقر قريش » عبد الرحمن
 الداخل ، وزينها بجميل الخارف والكتابات وجعلها
 من اجمل القصور بهاء ورونقا ، فقال ابن فرناس فيها :

كان قصور الأرض بعد تمامه
 كثیر له أخفى شخوصاً من الدر
 فاعجب من امثالها الفرر التي
 يقيم بين البرد في دعوة الحر
 وتنتشر الابصار منها إلى مدى
 الشenze بالاطياد والوحش والزهر
 كان الذي يخفي الحديث بنجوها
 على اخفض الاصوات يشدوا على وتر

وكما كان يتحف الامراء بالآلات الدقيقة الصنع ،
 كان يتحفهم بهدايا طريقة نفيسة ، نظم اربعة ابيات ،
 وكتبهما بالذهب على تفاحة ، ورفعتها الى الامير محمد ،
 اولها :

محمد اكرم مستخلف
 من خلفاء الله في الأرض
 فسر الامير ، وامر ان يفتح بها ، وكانت ابا
 القاسم من كل بيت بائف دينار ، وقال : لو زادنا
 لزدناه .

كان ابو القاسم مرهف الحس ، واسع الخيال ،
 يستهويه جمال الطبيعة ، وسحرها الخلاب ، دقيق
 الوصف ، وكيف لا يصف مباحج الاندلس ، ومناظرها

حيث على كشحية من برحاته
عستان : فهو لم يوق لم يطلق
حلت عامة راسه فنفوت
منا مفارقته ، بمثل الرنيق
وله شعر رقيق يستهوي القلوب ، كقوله :
فبتنا وانواع النسيم ابتداانا
ولا غير عينها ، وعني كالي
الى ان بدا وجه الصباح كانه
جبين فناة ، لاح بين حجال
وقوله متغلا :

واحور ما يعني العيون من الفسق
له كدب في الجد ، احلى من العدق
والحسن في خديه شمس مقيمة
وبدر كمال لا يحسور الى محقق
وما العيش الا ميّة الهجر والموى
باحور ، ما يبقى هواء ، وما يبقى

- 4 -

كان ابن فراس موسيقيا مبدعا ، ينظم الشعر ،
ويضع اللحن ، ويقتفي به ، ويولع على المود ،
واشتهر بما وضعه من قطع جميلة كانت من نظمه
وتقيعه ، وكان أمراء قرطبة يزورون مجالسه
باتشاده ومرنه ، واكثر الامراء حبا له هو الامير محمد
ابن عبد الرحمن ، فناد يوما صوتا من نظمه وتلحينه
اوله :

الجمل ليس فيه نور
والعلم ثغر نوره مشهور
فاجزل له المطام .

ومما يدلنا على سرعة بدينته في نظم الشعر ،
ووضع الصوت المناسب وحسن توقيعه على المود ،
ما رواه المرباني (في طبقات اللغويين وال نحوين)
قال :

(١) مدينة غربى الاندلس

كان محمود بن أبي جعيل غلاما جوادا - وكان
ماملا في اخريات أيام الامير عبد الرحمن بن الحكم
- فعمل قبة ادم - بلغت الثقة فيها وفي وطالها
خمسة دينار - فاكملت ضريبها على وادي لكة (١)
ومنع شيئا ، جمع له اصناف الكورة ، ووافق ذلك
اطلاق « عبد الملك بن جهور بن يوسف بن بخت »
شياعه « بشدونة » فاستجلبه محمود مع بياض الكورة ،
نشهد وشهدوا ، فلما تقضى طعامهم ، وصاروا إلى
المؤانسة - ومندهم أحد بنى زرباب - طلع عليهم
مباس بن فراس زائرًا لمحمود ، فقام محمود به
والترمه ، وسر جميعهم بدوره ، ثم عرض عليه
الطعام ، فطعم ، ثم صار إلى المؤانسة ، ودفع ابن
زرباب يعني :

ولو لم يشقني الظائمون لشافي
حمام تدامت في الدبار وقوع
نداعين لاستبكيين من كان ذا هوى
نوالع ساتجيري لهم دموع
فاستعادوا الصوت امجابا ، فاعاده .

فلما تقضى فناة ابن زرباب ، مد العباس يده إلى
المود ، فأخذه وفنى البيتين ، ووصلهما من عنده
بديمة فقال :

شددت بمحمود يدا حين خانها
زمان لاسباب الرجاء قطوع
بني - لسامي الجود والمجد - قبة
اليها جمیع الاجودین رکوع

وكان محمود جوادا ، فقال له : يا ابا القاسم ،
افر ما يحضرني من مالي القبة وهي لك - بما فيها من
كسوتي هذه - ونكون في فسيانتك بقية يومنا ،
ودعا اليه بكوة للبسها ، ودفع اليه كسوته ، وكانوا
بومهم كذلك ..

هذه القصة الطريفة من الفنان ابن فراس ،
تعلمنا على ما كان عليه من النظم الذي يناسب

فولا برأته في الموسيقى والنغم ، وشعوره
الرهف ، وتصيره بالغريب ، وأطلاعه الواسع على
دقائق هذا الفن - لما سهل عليه حل رموز الكتاب ،
وبسيطه .

- 6 -

فحكيم الاندلس ابن فرناس ، كان من عباقرة
عصره في العلوم ، والمعارف التقليدية ، والأداب
الرفيعة ، والفنون الجميلة .

عائى صناعة الطب ، فكان من اطباء زمانه ، درس النطق والفلسفة وعلوم الحكمة وصار من اعلامها، عكف على التجارب في الكيمياء والعلوم الطبيعية واهتدى الى امور خفية على غيره ، متضلما بعلم الفلك والنجوم والرياضيات ، وجاء بما ادهش قومه - وكان مع هذا كله - اديبا شاعرا نحويا لغوييا ، يتقن وضع الالحان ، ويحسن الابيقاع على آلات الطرب ، وبطير في الفضاء ، محانا في جو الاندلس ، ذلك لانه كان بعلمه وفنه ، فوق ما عليه قومه ، فخلق في العلم والعمل .

رحم الله ابا القاسم « حكيم الاندلس » فقد كان من اعلام نوابغ الاسلام ، يفاخرون بعلمه واديه وفنه.

المقام ، وأنه كان يضع له الصوت ، ويغنى بما يعجب
المرثيين في القناة ، بل يغوص بهم بذلك

- 5 -

هذا التفوي في الموسيقى والايقاع ، ساعدته على حل اصطلاحات كتاب المروض للخليل بن احمد الفراهيدي (100 - 170 هـ = 786 - 863 م) احد مفاخر العرب والاسلام .

ذكر المؤرخون : لما دخل الى الاندلس كتاب المروض ، للخليل بن احمد الفراهيدي وصار الى الامير عبد الرحمن بن الحكم ، عرضه على علماء قرطبة وادبائها ليوضحوه له ، فعجزوا عن ذلك ، وصار الكتاب مما يتلئ به فى قصر الامير ، حتى ان بعض جواري القصر كان يقول لبعض : صير الله عقلك ، كعقل الذى ملا كتابه من : مما واما . فبلغ الخبر ابا القاسم بن فرناس ، فتقدمن الى الامير ، وطلب اليه اخراج الكتاب اليه ، ففعل ، و لما قرأ ابن فرناس وتدبره ، علم انه فى علم المروض ، العلم الذى ابتكره الفراهيدي ، وضبط به بحور الشعر العربى ، فلما اتى ابو القاسم فوامضه ، وشرحه لقومه ، فسهل عليهم دراسة هذا الفن العجيب والاستفادة منه .

أهم المصادر التي عولنا عليها في هذا البحث:

بغية الملتمس - للضبي

المغرب في حل المأزق - نشره شوقي ضيف.

جذوة المقتبس - للجميدى .

التشبيهات من اشعار اهل الاندلس - الكثاني.

سع الطيب - المغربي .

مهمة الادارة - ملخص

شارة الذهب - الشهالمس

طبقات اللغويين والنحوين

وفیات الامیان - این خلک

بغية الوهأة - السيوطي

شدرات الذهب - لابن العمدة

مقال في العدد 22 من مجلة

وغيرها من المصادر ..

مقال في المدد 22 من مجلة العرب لالاستاذ عنسان .
وفيروها من المصادر ..